اديار دمشق وبيَعها

في الاسلام

لم يتهيأ لنا من اخبار الاديار والكنائس في دمشق وضواحيها بعد الفتح الاسلامي ، وفي الصدر الاول من الخلافة الاموية ، سوى لُمع ضئيلة لا تسدّ حاجة ولا تروي غليلًا . ومن الغريب الذي لم يكن في الحسبان ان كل ما وقفنا عليه منها ورد مقطعه في الآثار الاسلامية واقوال الشعراء ؛ وذلك اما لقلة ما كتب عنها في المصاحف النصرانية ، وهو الظاهر الارجح لقلة اكتراث الرهبان ورجال الدين لمثل هذه الروايات ؛ واما اضياع كل الآثار القديمة كبيَع النساك والشهداء وما اشبه من القصص والكتابات المسيحية والاسفار التاريخية . ومن اشد الكوارث الفاجعة التي اتلف فيها رجال الكنيسة تراث اسلافهم من تركات الرهبان والنساك هذا الحريق البربري الذي اضرم نيرانه في مخطوطات دير السيدة في صيدنايا وكلاء الروم الارثذكس في اوائل القرن التاسع عشر[1] في ولاية احد البطاركة اليونانيين بغضاً وجهلًا لكونها باللغة السريانية ، ففاتنا باحراقها عدة اخبار وتعليقات عن الاديار والمعاهد الدينية في الشام لا نجد عنها بديلًا ؛ ولولا ما جاء عنها عرضاً في غضون المؤلفات والمجامع الاسلامية وما حفظته لنا الرواة من اوصاف الشعراء وخمريات المتنزهين والمتطرحين في الديارات والحانات لجهلنا جلّ احاديثها ولخفي علينا الصدى الضعيف الذي رجع لنا من اخبارها .

ويكفي تصفح المخطوطات والصحف السريانية التي عنّ عنها الدهر لمعرفة كثرة ما كان من هذه الاديار والقلالي والصوامع في ايام الروم البيزنطيين منتشرة في خيّر دمشق ، متفرقة بين سهولها وجبالها كما يدلّ عليه هذه البقية

---

١) المشرق ٢ [١٨٩٩] ٥٨٦–٥٩٠ ، وخزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١١٧–١١٨ ، وتاريخ صيدنايا لنا ٢٥٨ – ٢٦٠

الباقية من القرى المتممة اليوم باسم الدير في الغوطة وسائر بر دمشق ، وقد غلب عليها اسماء محدثة في الاسلام بعد ضياع اسمائها الرومية او السريانية . وغاية ما نعلم اليوم من امرها بعض مواقعها القديمة اذا صح ان كل مسمى بالدير او مضاف اليه من القرى والدساكر كان سابقاً مسكناً ومنزلاً للرهبان ، ان لم يكن فيما مضى حصناً او مرقبا الروم البيزنطيين قبل ان ينتصب او يستولي عليه الخراب . وقد جمعنا ما وقفنا عليه من هذه الضياع المحدثة التي يظن انها قامت على انقاض الديارات او الحصون وهذه اسماؤها كما تعرف بها اليوم بين عامرة وغامرة .

١	دير أبان	(عند قرحتا)
٢	دير ابن اوفى	(خارج باب الجابية)
٣	دير باشية	(قضاء قنيطرة)
٤	دير بشر	(حجيرة)
٥	دير ابن بجدل	(اقليم بيت الآبار)
٦	دير الحجر	(دوما)
٧	دير زكنا	(الغوطة)
٨	دير سابر	(اقليم حولان)
٩	دير سراج	(قنيطرة)
١٠	دير سلمان	(دوما)
١١	دير الصافير	(دوما)
١٢	دير ابي عمرون وهو المعروف بالدوير في الغوطة[١] . ورد ذكره في وقف الصاحب محيي الدين الجوزي على مدرسته بتاريخ سنة ٦٥٦ : ١٢٥٦	
١٣	دير عطية	(النيرك)
١٤	دير علي	(قطنا)
١٥	دير قانون	(الزبداني)
١٦	دير قيس	(اقليم حولان)
١٧	دير كروح	(قنيطرة)
١٨	دير محمد	(عند المتيحة)
١٩	دير مفضل	(قنيطرة)

(١) ضبط الغوطة على جميع الغوطة لابن طوغون الصالحي ، خزانة حسامية ليدن في هولاندة ، المخطوط ١٨٦٢ ، ص ٢

٢٠ دير ماكر (قطنا)
٢١ دير مقرن (الزبداني)
٢٢ دير النواطير (حوار بيت راس)
٢٣ دير هند (اقليم بيت الآبار)

وليس بين كل هذه الاسماء ما ينمّ عن اصل نصراني الا دير زكا ودير قانون (مار قوس) ودير عطية . ومن التناقض نسبة بعض الاديار الى اعلام اسلامية كدير بشر ودير محمد ودير علي ودير ابن مجدل ، وقد نبه ياقوت على ان بشرًا هو بشر بن مروان بن الحكم الاموي ، وان محمدًا هو محمد بن الوليد بن عبدالله بن مروان . وذكر ابن عساكر ان ابن مجدل هو سعيد بن مالك ولي امرة قنسرين والجزيرة في ايام يزيد بن معاوية واقطعه الدير فنُسب اليه . ولا شك ان ديري بشر ومحمد عُرفا بهما اما لحوار ضياعهما او لملابسة اخرى ، كما عُرف دير صليبا باسم دير خالد لنزوله عنده لما حاصر دمشق من جهة باب الفراديس والباب الشرقي ، او كما اشتهر دير ميخايل بظاهر دمشق بدير البخت لابل لعبد الملك بن مروان كانت مقيمة عنده

ولا يزال في ضواحي دمشق وفي بساتينها ومزارعها وقرى غوطتها بعض اسماء اديرة دارسة لا يعرف لها خبر ولا اثر « كدير الزراد » و « دير الرهبان » في ظاهر الباب الشرقي في جملة الساتين ؛ و « دير الاوسط » و « دير القبلة » و « دير شمال » (كذا بغير لام التعريف) شرقي البحرتين وغير ذلك مما يضيق الذرع باستيفائه . ولهذه الدمن امثال متفرقة في السهول والجبال من تراث البيزنطيين والنصارى الاولين لا سبيل اليوم لمعرفة شيء من ماضيها وانبائها .

وما عدا الاديار البائدة كان بدمشق وبرّها اديار تسربت الينا قطرات من اخبارها في الاسلام وقد رتبناها على حروف المعجم تسهيلًا لمراجعتها ، وافردنا لكل منها وصفًا جمعنا فيه كل ما وُفقنا للعثور عليه من الاشارات والروايات الواردة في معناها ، وهو وصف ان كان ضئيلًا لا يستغني به العلم كثيرًا في ظلمات البحث والتحقيق ، ففيه على كل حال سداد من عوز وتذكرة من مآثر الزمن الغابر .

دمشق ٣٠ ايلول سنة ١٩٦٨ في دير المخلص بوحنا الدمشقي للآباء اليسوعيين .

١

دير مار الياس في داريا

عثرنا على اسم هذا الدير في ابيات لجلال الدين بن خطيب داريا ، احد شعراء دمشق وعلمائها ، المتوفى سنة ١٤٠٧/٨١٠ . وهي غاية في الحلاوة والظرف نظمها على اسلوب الشعراء المتقدمين في التغزل باحداث الرهبان وهو فرع من فروع القصائد الخمريات وضعه الشعراء المتظرفون في الديارات تخيلاً وتطرباً قال :

هات اسقني الصهباء يا مؤنسي ... قد فاح نشر الورد والنرجس ...
فمالطيها غير ممزوجة ... عذراء تجلو صدأ الانفس ...
هذا هو العيش ومن لي به ... في دير مار الياس او بطرس
مع فتية مثل بدور الدجى ... اذا بدوا في اسود الملبس
رهبان دير طيب اخلاقهم ... اصفى من الراح لمستأنس
يحاسبون الناقوس قسيسهم ... بكيريالیسون عند المسي
اكثر الفاظه لنا «اشرب» فلا ... اسمع لا أفتر ولا أدرس
سالي وللفقه واصحابه ... يا نفس منهم آن ان تيأسي
بعدا لبغداري وفرحيتي ... وشيبتي كالمائف المُباس
وكتبي المهدول عما به ... من حسن محفوظها قد نسي
وطيلساني حسبن اشبي به ... شيخ يوحنّاس اخا جرجس
ما انا والنحو وحق متى ... ادرسه يا ليت لم ادرس(١

اشار بقوله « يا ليت لم ادرس » الى شرحه الفيـة ابن مالك في النحو حبًا للتنادر والتظرف . وقد يتطرق الريب الى اسم الدير هل هو حقيقة مار الياس وهل اسم بطرس أُلحق به طلباً للقافية ام انه كان هنالك ديران باسم كل من القديسين ، وهو لا يستبعد . ولعل الارجح مـار الياس وان اسم بطرس كُسِع به للضرورة كما قُفِّي اسم يوحنّاس في البيت الحادي عشر باسم جرجس للسبب نفسه . واذا كان حقاً هنالك ديران فهذه ايضاً ابيات يصلح

(١) روض الآداب للشهاب الحجازي ، بريتش موزيوم ، ٥٣ ٢ ، Add 19489,

ان تعني كلا من الاسمين وهي لمحمد بن طاهر ابي الفضل المقدسي المتوفى سنة ١١١٣/٥٠٧ نسج فيها ايضاً منهج الاشعار الديوية الخيالية :

دع التصوف والزهد الذي اشتملت ... به جوارح اقوام من التاس
وعج على دير دارينا وحان به ... هيفاء مما بين قديس وشماس
واشرب بشقفة من كف كافرة ... تسقيك خمرين من لحظ ومن كاس
ثم استمع زمزمة الاوتار من رشا ... يلهف طرفه المعنى من الياس
عني بشعر امرىء في الناس مشتهر ... مدون عندهم في صدر قرطاس
لولا اسير نداكم ان يروّحني ... لكنت محترقاً من حر انفاسي(٢)

وكانت آثار الدير ماثلة الى مفتتح القرن الحاضر في جوار دار انور بك البكري . ثم أخذت احجارها ودخلت في الابنية المجاورة اسوة بسائر انقاض الديارات والكنائس في الاسلام . ولا تزال بعض قواعد العُمُد والجدران شاهرة على وجه الارض .

(له صلة)

---

(٢) غاية الارب للنويري . خزانة ليدن ، arab. 19 a Gol.